الابتكار في العلوم الإنسانية

غسّان مراد

على الأبحاث في العلوم الإنسانية أن تكون مهيأة دائمًا للتجديد والابتكار، فالتغيرات الناجمة عن الأحداث المتوقعة والمفاجئة تحتّم علينا رؤية الملاحظ، ليس من خلال المفاهيم المتجذرة في العلوم فحسب، بل من خلال الابتكار في العلوم أيضًا، وهو الذي يؤدي إلى فهم المُلاحظ من وجهة نظر مستقبلية. وعندما نقول ابتكارًا، يتجه فكرنا مباشرة نحو الابتكار في العلوم الصحيحة، ونحو الإنتاج والتصنيع، ولكن ماذا عن الابتكار في العلوم الإنسانية، هل هناك ابتكار فيها؟ إنه سؤال يراودنا دائمًا، وخصوصًا عندما نواجه تغيرات في أنماط الحياة المعيشة؟

في الواقع، كل باحث يستحقّ هذا اللقب يريد الابتكار. البعض ذو طموحات كبيرة، والبعض الآخر يكتفي ببعض الإضافات البسيطة. أما الباقون، للأسف، فهم كثر؛ إما يكتفون بتكرار ما يحصل، وإما لا يفعلون شيئًا. هؤلاء الباحثون – السلبيون لا يتطلعون إلى البحث العلمي إلا عن طريق الانتحال أو "الاحتيال". وبالتالي، في وضع كهذا، يصبح من الصعب الابتكار.

ولكي نصبح باحثين، علينا أن نتمتع بعدة أمور، أهمها الشغف والموهبة والإرادة من جهة، والمعرفة العلمية المصاحبة لذلك من جهة ثانية، فالعمل هو ما يؤدي إلى بناء خلفية معرفية تسمح بأن نصبح باحثين. وإذا كانت الرقمنة قد سمحت بالوصول إلى المعلومات، فإن العملية العلمية لا تتكوّن ببساطة من مراقبة البيانات التجريبيّة وجمعها واشتقاق نظرية منها، بل من المفترض البدء بـ"اختراع" عالم ممكن، لمواجهته بالتجربة مع العالم الخارجي، إذ إنه لا ارتجال في العلم.

استطرادًا، إذا كان الابتكار في العلوم الإنسانية توليدًا للأفكار، فالسؤال المطروح: كيف تولّد الأفكار في العلوم الإنسانية؟ هل هي مجهود شخصي أو هناك استراتيجيات تساعد على الابتكار؟

لا شك في أن هذه الكلمة لها وقعها على السمع، ولكنها كمفهوم تعتبر ضرورية. ومن المفترض بها أن تهمّ كل من يريد أن يكون باحثًا. بالنسبة إلى أصحاب القرارات في مجالات الإنتاج، فهي محط اهتمام دائم، وخصوصًا أن المضاربة، على اختلاف أنواعها، تحتّم اتّخاذ القرارات المبتكرة، ولكن هل هناك أصحاب قرار في العلوم الإنسانية؟ من يتخذ القرار في الابتكار في هذا العلوم؟

إن الابتكار يدفعنا إلى تخطي حيّز الهدوء الفكري، ويدخلنا في حيّز التوتر... فالسعي وراء المعرفة ليس أمرًا سهلًا. الابتكار يشير إلى القدرة على تطبيق حلول إبداعية للمشاكل لتحسين حياة الناس أو تغيير المجتمع. وبالتالي، إن قدرتنا على الابتكار هي مهارة أساسية للتجديد التنظيمي وتنمية المهارات.

في كثير من الأحيان، يحدث الابتكار عند تقاطع العديد من المجالات البحثية، ما يدفعنا إلى الانتقال إلى خارج مجالاتنا المعرفية الضيقة، ويفتح بدوره الرؤى الفكرية على مجالات أخرى، ويؤدي إلى فتح آفاق إيجابية، تكمن أهميتها في استدعاء منهجيات بحثية منتظمة ومختلفة لفهم الحالة؛ منهجيات تعتمد على البحث عن معرفة استدلالية، من الممكن أن لا تكون متاحة، بل علينا ابتكارها.

لقد أدخلتنا التقنيات في عصر الابتكار المكثف، الذي ينبغي أن يتجسد ويُنظم في مراكز الأبحاث والتطوير. كل ذلك لفهم التغيرات وتفسيرها في بيئة غير واضحة المعالم ولا ثبات فيها، ولا سيما التحولات الرقمية المتسارعة وأثرها في نمط الحياة من جهة، كما أثرها في استخدام تطبيقات وأدوات جديدة علينا فهمها وتطويعها لتتناسب مع ما نريد تحقيقه، من جهة ثانية.

على سبيل المثال، ماذا عن الابتكار والتعلم في العصر الرقمي؟ إنّنا نعلم جيدًا أن الابتكار والتعلم يرتبطان ارتباطًا وثيقًا، فالتعلم ليس جزءًا من نشاط الابتكار فحسب، لأن الابتكار ضروري أيضًا لإيجاد طرق جديدة للتعلم والتنقل بين مجموعات المعلومات بطريقة هادفة.

إن التعلّم والتعليم باتا حاجة للتكييف المستمر للبنية التحتية التعليمية وعلم أصول التدريس المرتبط بها، ما يحتّم ابتكار أنواع جديدة من طرق التدريس في الأنظمة التعليمية، تتيح الانتقال من مسارات التعلم

الخطّي إلى مسارات التعلّم الحديث التي تسهل اللعب والتجريب والاستكشاف، لكي يكون المتعلم قادرًا على التبادل والمشاركة، وبناء توازن بين العملي والنظري، وبين تقبّل ما يقال ونقده.

الرقمنة لا تلغي الموجود، بل تفرض علينا الابتكار، ليس من خلال حذف المعارف التقليدية، بل من خلال وضع أساليب تكاملية مع الرقمنة تعزز جوانبها الإيجابية. كل ذلك سيسمح لنا بمواجهة الكم الهائل من المعلومات والتعامل معها بحكمة، وهو ما يتطلب طرقًا مبتكرة تؤدي إلى اكتساب المعرفة الرقمية لكي نبني متعلمًا محترسًا، من مثل تثبيت الأفكار في العقول في بيئة معينة لتصبح قابلة للإبداع، وتهيئة البيئة اللازمة للإبداع في العلوم، ووضع استراتيجيات لإنتاج الأفكار، إما من طريق منطق الاستدلال والاستنتاج المفترض، وإما من طريق تنشيط العمل الدماغي بشكل متشعب. في الحالة الأولى، تكون الإجابات التي نرتكز عليها هي الإجابات الصحيحة فقط، في حين أن التشعب الفكري ينتج العديد من الأفكار، التي قد لا تكون صحيحة بالضرورة، ولكن تعدد الإجابات يحث على التفكير بشكل منفتح.

وفي باقي العلوم الإنسانية، ومع التطورات التي حصلت على الصعيدين الرقمي والصحي وتأثيراتها في أنماط حياة البشر، بات الابتكار في العلوم الإنسانية حتميًا، فلا يمكن معالجة أي مستجد في العلوم بمفاهيم سابقة وجدت لمعالجة مجالات مختلفة، ولا يمكن فهم الحاضر والمستقبل بأدوات ومفاهيم سابقة، بل علينا ابتكار مفاهيم جديدة تتناسب مع هذا التغيير ومع كل تغيير، وأول ما يتأثر في هذا التغيير هو النصوص التي تأخذها الإنسانيات في مقارباتها البحثية، مهما كان المجال، ومهما كان الموضوع. وإضافة إلى كل ذلك، لم تعد الإنسانيات محدّدة في زاوية مغلقة، إذ انفتحت العلوم على بعضها بعضًا، ما أدى إلى ابتكار منهجيات متداخلة ومتعدّدة المجالات.

انطلاقًا من ذلك، تناولت نصوص هذا العدد عدة طروحات مرتبطة باللغة والتعليم في ظل الرقمنة، وفي ظل الحالة الصحيّة المستجدة في العالم، إضافة إلى بعض الطروحات المرتبطة بالإرشاد الفلسفي والدين، فقد تناولت الدراسة الأولى حالة المصطلحات العربيّة، وخلصت إلى أنّ المستحدثات لا تكتسب

معانيها الخاصّة، ولا تفرض نفسها في الميادين العلميّة إلّا من خلال النصوص، وأنّها لا تثبت إلّا حين يتعرّف إليها المستخدمون ويفهمونها ويستعملونها.

أما في ما يخصّ نص الإرشاد الفلسفي وتوليد الأفكار، فقد اهتم البحث بالفلسفة العلاجية وفق النهج النُظُمي (السيستامي) الذي يفترض أن أية مشكلة هي نتيجة خللٍ وظيفي في المجموعة، ولا يمكن الفصل بين العقل الانفعالي والعقل المنطقي. وإضافة إلى ذلك، إن معالجة أوهام العقل المنطقي، ويُعنى بها المعتقدات والأفكار، تترك أثرها الفاعل في إدارة العافية الإنسانية. تلك كانت النتائج التي خلُص البحث إلى مناقشة نماذج عنها.

بالنسبة إلى ما يتعلق بانفجار مرفأ بيروت، هدفت دراسة إلى تحليل نسبة الإصابة باضطراب ما بعد الصدمة لدى اللبنانيين، وذلك من خلال المقابلة، وتناولت دراسة أخرى حالة شاب يعاني شعورًا بالذنب بسبب بقائه على قيد الحياة بعد فقدان والده جرّاء الانفجار. وقد أظهرت نتائج التحاليل تأثير كيفية مواجهة الانفجار وعلاقته بنسبة معاناة الأفراد من ناحية الصدمة واضطراب ما بعد الصدمة، رغم بعد مرور سنة على هذه الكارثة.

وفي ما يخص الابتكار في التعليم في العصر الرقمي خلال انتشار جائحة كورونا، سعت المدارس ملزمةً لتوفير التعليم من بُعد، والابتكار في استراتيجيات التدريس الخاصة بها، من خلال تنويع مناهجها وأساليبها التعليمية. من هنا، استندت إحدى الدراسات إلى التجربة التربوية في مرحلة رياض الأطفال، من أجل عرض الاستراتيجيات المختلفة المعتمدة للتغلب على صعوبات التدريس/التعلم مع التعليم عبر الإنترنت التي تمليها وزارة التربية والتعليم العالي في لبنان وتقييمها.

ومما لا شك فيه أن الرقمنة أثّرت في اللغة. وفي هذا المجال، ضمّ العدد دراسة ميدانية للوقوف على آراء كل من المتعلمين والعلماء حول استخدام النصوص في إعداد "اللغة الإنجليزية كلغة ثانية / الإنجليزية

كلغة أجنبية". وبالنسبة إلى التعلّم، هدفت الدراسة إلى معرفة اتّجاهات أعضاء هيئة التدريس في كليات التربية نحو إنشاء مراكز تعليم الكبار والتعليم المستمر في الجامعات السعودية.

وضمن الدراسات السوسيولوجية، بيّنت دراسة تأثير الموسيقى في المجتمع وأثر نوعها في النهج الاجتماعي الموسيقي اللبناني، وسلّطت الضوء على تأثير التقدم الاجتماعي في الموسيقى البيزنطية والسريانية، وخلصت إلى أن هذين النوعين الموسيقين عُرضة للتغيّرات في هياكلهما اللحنية والإيقاعية واللغوية وغيرها، وكان عليهما مجاراة تقدّم هذا المجتمع الخاص.

في الدراسة ما قبل الأخيرة، محاولة للتعرّف إلى صورة المسلم المتديّن في السينما المصريّة من حيث الشكل والمحتوى. وقد خرجت الدراسة بنتائج أهمّها ظهور المسلم المتديّن بشخصية سلبيّة في عدّة مناحٍ، مثل القيم والسمات وأبعاد الشخصيّة ونوع الطموح، فيما ظهر عدّة مرّات هادئًا صبورًا واثقًا بنفسه. ورغم ذلك، لم تقدّم الأفلام – عيّنة الدراسة – الصورة الحقيقيّة للمسلم المتديّن في المنطقة العربيّة، بل قدّمت صورة سلبيّة مشوّهة يمكن أن تساهم في تأسيس إدراك لدى الجمهور وبناء توقّعات تجاهها وفقها.

وما هو جديد في هذا العدد، كان فتح باب خاص لتقديم "قراءة في كتاب" والتعريف به للقارئ العربي المختص. باكورة هذه القراءة، تقديم فحوى كتاب تودوروف "نقد النقد"، بالإجابة عن ٣ أسئلة رئيسة: ما هو الأدب؟ ما هو النقد؟ ما هو نقد النقد؟ وفيه يروي تودوروف تجربته النقديّة خلال ربع قرن وما اعتراها من شغفٍ وإحباط. يشكّل هذا الكتاب تاريخًا مفصليًّا في سيرة صاحبه، إذ اختُتم المرحلة النقديّة البنيويّة التي كان في أساسها، وشرع في حوارٍ مع الآخر ليتفحّصَ موضوعاتِ الاستعمار والهُويّة والعولمة... بالإضافة إلى ذلك، وبهدف تشجيع الباحثيين الشباب على النشر العلمي والابتكار في العلوم الإنسانية، سنفتح، بدءًا من العدد القادم، بابًا جديدًا في المجلة مخصّصًا لنشر مقالات الباحثين الشباب، ولاسيما تلك الخاصة بطلاب الدكتوراه.